أصداء الغبار: قراءة في ومضة "صراع" لهيفاء حماد

د. جمال الجزيري

جامعة السويس، مصر؛ جامعة طيبة، السعودية

صراع

راقبت آخر ذرة غبار سبحت خلفه بالفضاء. تنهدت بعمق، حقي الذي استرجعته منه أعادني للحياة.

الغبار في حد ذاته صراع، وهو يدل على غضب الشخصية المبتعدة عن الراوية هنا، والسباحة في الفضاء علامة على خفة الوزن أولا وعلى إمكانية العودة ثانيا. التنهد بعمق يوحي بوطأة الصراع على قلب الراوية، وهو يفرّغ هذا الثقل مؤقتا. استرجاع الحق ولادة جديدة، وفي الغالب يتعلق بالقلب هنا، وكأن الراوية استعادت نبضها. ومضة مفتوحة على احتمالات تأويلية عديدة وعلى استئناف الصراع من جديدة، وفي الغالب سيكون صراعا انتقاميا من الشخص الذي خلّف الغبار.

تبدأ الومضة بفعل المراقبة الذي يوح بأن الراوية تحرص حرصا شديدا على متابعة ما يمثل أمامها. وهي تراقب هنا "آخر ذرة غبار"، الأمر الذي يدل على أن الغابار كان كثيفا قبل البداية النصية، وأن كثافة الغبار تعزز الصراع الموجود في العنوان، فكثافة الغبار دليل على التعارك أو

التشاحن أو التصارع بين الراوية ومن يرحل أو ينسحب أمامها في بداية الومضة. وكون الغبار موجودا خلف هذا الرجل يوحي برحيله الغاضب وبانسحابه (المؤقت) من المعركة.

وتأكيد الراوية على "الفضاء" يوحي بعدم وجود أشخاص آخرين في المشهد، وبالتالي يوحي بأن الصراع بين الراوية وهذا الرجل صراع شخصي ويتعلق بالعلاقة بينهما. وسباحة الغبار في الفضاء يوحي أيضا بأن هذا الغبار لن يتلاشى، وإنما سيظل في الفضاء حتى لو انتقل إلى مجال آخر أو إلى مرحلة أخرى من مراحل الصراع، الأمر الذي يدل على أن هذا الصراع سيتجدد لاحقا بشكل أو بآخر.

وبعد ذلك، تنتقل الراوية من المنظور الخارجي المستعمل في بداية الومضة إلى منظور داخلي ذي مستويين: يتعلق المستوى الأول بتنهدها بعمق لانزياح هذا الهم الثقيل من على قلبها وانتصارها (المؤقت) في هذه المرحلة من مراحل الصراع. أما المستوى الثاني من مستويات هذا المنظور الداخلي، فينقل لنا السبب الذي أدى إلى هذا الصراع ونتيجته. ففي الجزء الأخير من الومضة تعود الراوية بالزمن إلى الوراء لتسليط الضوء على الحق الذي ضاع وتسبب في هذا الصراع. كما تنتقل إلى الصراع من جديد وتركز على استرجاعها لهذا الحق الذي حدث نتيجة لتغلّبها في الصراع. ومن الملاحظ هنا أن تقديم الصراع في الجملة وتحويل الجملة الفعلية في

الأصل إلى جملة اسمية: فبدلا من "أعادني للحياة حقي الذي استرجعتُه" تقول: "حقي الذي استرجعتُه أعادني للحياة" – هذا التقديم يؤكد على الحق ويبرزه في حياة الراوية. كما أن تأخير عبارة "أعادني للحياة" يجعلنا نقرأ الومضة على أنها عبارة عن جملة واحدة تبدأ بالمراقبة وتنتهي بالحياة: راقبتُ الحياة. وكون أن هذا الحق أعاد الراوية للحياة يدل على أن ذلك الحق يتعلق بالحياة ذاتها وبالقلب الذي يمثل نبضة حياة الإنسان، الأمر الذي يجعلنا ننظر إلى الصراع على أنه صراع وجود وصراع عاطفي في آن، وكأن الراوية استعادت قلبها ومن ثمّ استعادت حياتها.

على مستوى البناء، تبدأ الراوية من نهاية الحدث، وهي نهاية دالة، إذ أنها تجسّد حلقة مهمة جدا من حلقات الصراع الإنساني، وتقدم لنا تفاصيل هذه الحلقة في جملة واحدة من منظور خارجي يجعل القارئ يتأمل تفاصيل الصراع بنفسه ويستخرج منها دلالاته وإيحاءاته. وبعد ذلك تنتقل الراوية إلى منظور داخلي يرجع بنا للوراء لبيان أسباب الحدث ويعود للأمام في آن لكي يقدم لنا نتيجة الصراع من منظور الراوية وكيف أن النتيجة التي حققتها تجعلها تتمكن من معاودة الحياة من جديد بثبات وعزيمة. ومن الملاحظ أن الشخصية هنا شخصية متفردة لها سماتها الواضحة، وهي شخصية تدافع عن نفسها ووجودها وحقها دفاعا مستميتا، ولا تنتشي بالانتصار المؤقت، فهي تؤكد على مراقبتها للحدث ونتيجتها وكأن تتوجس من عودة المعتدي،

وتحرص على أن تكون متيقظة تراقب كل شيء كي لا تضيع منها مكتسباتها.